إيفالد فري، ميشا ماير (ناشرون)

تفكير مختلف في الأزمات

كيف تعامل البشر مع التهديدات
وما يمكن أن نتعلمه من ذلك

ترجم هذا المقتطف من الكتاب: د. ضياء الدين النجار

1

مهدد وخائف

مهدد وخائف

إيفالد فري ، ميشا ماير

دعونا نفكر على نحو مختلف في الأزمات عندما نأخذ الأمر على محمل الجد؛ فهي تُصور على أنها تهديدات وتُستشعر هكذا ونستوعبها هكذا، متجاوزين في هذا الرؤي الوطنية والأوروبية قصيرة النظر ساردين قصص المنظومات المُهددة والتي دارت أحداثها تاريخيا على مر العصور في أماكن مختلفة من العالم. هذه هي فكرة هذا الكتاب.

يأتي في صدارة اهتمامنا ها هنا تلك الديناميكيات التواصلية والاجتماعية التي تنشأ عندما يدق ناقوس الإنذار؛ ففي حالة "الأزمة" نتشارك في الاستماع – فضلا عن مفردات مثل "الخطورة" و"الارتياب" – أيضا إلى مفردات مثل "القدرة على التحكم التكنولوجي"، و"التواصل خلال الأزمة"، و"مستشار الأزمة"، و"سيناريو الأزمة". يتداعى إلى أذهاننا في حالة التهديدات على النقيض من هذا مواقف اجتماعية احتمالاتها مفتوحة مشحونة بالعاطفة يبدو فيها الميل إلى التسبب في إرباك الناس أفرادا أو جماعات. وربما – إذا ما تحدثنا عن التهديدات عوضا عن الأزمات – بحسب المنطلق الافتراضي لهذا الكتاب – نتعلم شيئًا جديدًا عن تحديات القرن الحادي والعشرين، عن تاريخنا وعن أنفسنا.

مُهدد

ماذا يحدث عندما نشعر بالتهديد؟ عندما نفقد الثقة سواء بما اعتدناه من خطوات تالية أو كذلك بالأصدقاء؟ عندما نشك في أسس حياتنا؟ عندما تتصاعد مشاعر مثل الخوف والهلع والغضب ونحسب أننا نعرف المسئول عن ذلك؟

بادئ ذي بدء لا شيء يحدث البتة. ولا تنشأ ديناميكية اجتماعية إلا عندما نشارك مشاعرنا مع الآخرين ونضع أيدينا على نحو مباشر على التهديد. ثم يصبح هذا موضوعنا، ويفقد أي شيء آخر أهميته. ويكون هدفنا أن نغير هذا الوضع الآن وحالا؛ فنحشد كل الطاقات المتاحة للتخلص من التهديد. لكن هذا لا ينجح دائمًا، فغالبًا ما يتضح أن الإسراع في تسمية السبب والتبسيط منه غالبًا ما يكون خاطئا. نعيد النظر، نحاول بطريقة أخرى أن نتلمس العون. وبينما تفشل أوجه العون الجديدة ويتضح أن أوجه التشخيص الجديدة للمشكلة لم تكن دقيقة فإننا نتعلم ويتشكل وعينا ببديهيات حياتنا اليومية لأن هناك خطر يتهددها وندرك ما المهم بالنسبة لنا ونفهم ماهية أنفسنا من جديد. وعندها فقط نستوعب عادة الموقف ونفصح عمن سيكون له ولاءنا الأول. من نحن فعلا؟ ماذا نريد أن نكون؟

التهديدات نواقيس إنذار ذاتية تتمخض عن هذه المنظومة أو تلك. وهي تنشأ عندما يخبر الناس بشيء ما: بسرعة، بصوت عالٍ وعلى نحو عظيم التأثر. يشير الخبر إلى شيء ما: ظاهرة سماوية، عاصفة تقترب، مجموعة من الأشخاص، فيروس، هجوم عسكري. ويندر تماما أن تُفعّل نواقيس الإنذار بمعزل عن شيء ملموس تلتقطه الحواس. لكن ليس هذا الشيء هو الذي يفعّل ديناميكية التهديد. هذا ما يفعله ناقوس الإنذار الذي يسلط على هذا الشيء ضوءا حادا. ومع ذلك ينبغي لجرس الإنذار أن يجد آذانا تصدقه، وهو الأمر الذي لا ينجح دائما؛ فتاريخ العالم مليء بالتحذيرات غير المسموعة.

وإذا ما تحقق ناقوس الإنذار فقد يكون لهذا الأمر عواقب هائلة. ويمكن للشخص الذي يسيطر على الموقف الديناميكي المتولد أن يفرض أمورا كان لا يمكن قبلها تصديق حدوثها: تعطيل الحقوق الأساسية وتسمية الأعداء والبدء بأعمال عنيفة ولكن أيضًا تنظيم حراك تضامني ومساعدة الضعفاء على النهوض من عثرتهم وخلق التماسك. وكما يقال بحق فإن التهديدات ديناميكية. ولهذا نادرًا ما ينجح الأطراف الفاعلة في أن يظلوا في موقعهم في بؤرة الأحداث على امتداد فترة التهديد بأكملها.

عادة ما تتبدل الشخصيات الرئيسية حيث تظهر على نحو مستديم توليفات جديدة بإمكانيات جديدة؛ فالتهديدات تنتج فرصًا ومخاطر لم تكن متصورة من قبل. يكون التغيير في المواقف المنطوية على تهديد ذو جدوى إذا ما ساد الاستقرار، أو على الأقل التماسك الصلب قبلها. لا يرى جميع الناس هذا الشيء أمرا جيدا ولا يراه جميعهم سيئا. يبدو المستقبل مظلمًا لأولئك الذين يتعرضون للتهديد، أما الآملون في التغيير فيبرق أمامهم المستقبل مشرقا. وكلاهما يريد تغيير شيء ما على وجه السرعة. ومن ثم تمثل التهديدات مواقف مفتوحة الاحتمالات تنطوي على مخزون عظيم لنشوب الصراع. وفي تاريخ لا يتكون من أوجه مستديمة للتقدم نحو المستقبل، بل يعرف فترات من التحول المتسارع أو المتباطئ، كما يعرف انتكاسات جانبية وأوجه للتراجع إلى الخلف يكمن في التهديدات مخزون لتغيير السرعة ولتغيير الاتجاه. ثم بعد أن يزول التهديد يمكن أن يكون كثير من الأمور أو كل شيء مختلفًا عن ذي قبل - لكن ليس بالضرورة أن يكون الأمر كذلك.

كل البشر على ما يبدو قابلون للتهديد. وكقاعدة عامة لا يظل هذا الأمر تجربة فردية؛ فالناس تشعر بخوف الآخرين وهلعهم وحنقهم ويكون من السهل عليهم أن يتقاسموا معهم هذه المشاعر، بل أن حتى كثيرون سيحاولون ألا يظلوا منعزلين مع عواطفهم. يمكن ملاحظة وجود مجموعات اجتماعية أو مجتمعات مهددة في أماكن كثيرة. وكلهم قد يكون متأثر عاطفيا ومضغوط اجتماعيا.

وغالبا ما يكون جميعهم تحت ضغط الوقت ويبحثون بشكل محموم عن المسؤولين وعما يخفف عنهم. ومع ذلك، تختلف مجموعات الأشخاص فيما يشعرون به ويفكرون به ويفعلونه عندما يتعرضون للتهديد، حيث يستحضرون مع موقف التهديد عادات ومخزونات معرفية مختلفة. ويكون لديهم اهتمامات وقناعات مختلفة، وتتباين خياراتهم: فمن لديه هاتف محمول يحشد الآخرين على نحو مختلف عمن يحمل منشورات. ويصيغ الناس في المجتمعات المتكافئة التماسك الاجتماعي على نحو مختلف عن الأشخاص الذين يتعين عليهم تحمل ما هو قائم من اختلالات هائلة في الثروات. كما أن لكبار السن في المقام الأول علاقة بالمجازفة والخطر تختلف عن علاقة الشباب في المقام الأول بهما. والأشخاص الذين يرون في التهديد فرصة يتعاملون بشكل مختلف ويشكلون تحالفات مختلفة عن الأشخاص الذين تعصف بهم مخاوف وجودية. لذلك يمكننا عندما نقارن مواقف التهديد أن نكتسب نظرة ثاقبة إلى داخل المجتمعات والفئات الاجتماعية. ويمكننا أن نفهم بشكل أفضل ما الذي يجعل المجتمعات والجماعات الاجتماعية متمايزة بعضها عن الآخر وما هي الخصائص التي يتقاسمونها وما أشكال الممارسات الاجتماعية التي يتشاركون فيها.

ولأن عددا كبيرا من المجموعات الاجتماعية والمجتمعات تتميز ردود أفعالها بالحساسية عندما ترى نفسها عرضة للتهديد فإنه يمكن من ثم أن تتجاوز المقارنات الحدود التي عودنا أنفسنا عليها؛ فنحن نميز في الحياة اليومية وعادة أيضًا في البحوث بين المجتمعات الحديثة وما قبل الحديثة، والمجتمعات الأوروبية وغير الأوروبية. وهذا التمييز صحيح من ناحية أنه ليست كل المجتمعات والمجموعات الاجتماعية سواء. لكن هل هذا التمييز ما بين الحديث – وما قبل الحداثة، أو الأوروبي – وغير الأوروبي هو الأهم؟ يبدو الأمر كذلك إذا انطلقنا من الحداثة الأوروبية ومنها على سبيل التمثيل تعريفاتنا للدول، والمواطنين، والقانون المكتوب. ومن ثم نرى أنفسنا ونرى أيضا – بعيدا عن أنفسنا – الآخرين. فإذا ما سلطنا الضوء على السلوكيات والممارسات الاجتماعية فإن الصورة تكون أكثر تنوعًا وتظهر أوجه الشبه والاختلافات التي تنحرف عن عاداتنا الفكرية. ويتيح هذا الأمر لنا النظر في المرآة على نحو جديد وأن نتعلم أشياء جديدة عن أنفسنا وعن الآخرين.

تهدف القصص التي تم جمعها في الجزء الأول من الكتاب إلى إظهار كيف يمكن تحقيق ذلك. وهي موزعة توزيعا حرا عبر الزمان والمكان؛ فنرى القسطنطينية في القرن السادس بجوار ليما في القرن السادس عشر. أضف إليها أيضًا أمثلة راهنة من كولونيا ومدينة غالتور النمساوية والصين وروسيا. كما أن هناك اختلافا شاسعا في تحديد ماهية التهديد: ما بين مرض معد، وعاصفة ترابية، وانهيار جليدي، ومدعية نبوة، وحرب، وهجرة. وكل قصة منها فردية لأن حتى نفس الأماكن لا تظل مع مرور الوقت على حالها ولأن كل مرض معد، وكل عاصفة، وكل مدعية نبوة له خصوصيته.

يُظهر طاعون جستنيان في القسطنطينية على نحو صارخ الواقع المرتبط بتهديد ما وعواقبه الجماعية القاتلة. يفتح التهديد أنظارنا نحو ما اتخذته إدارة مثقلة بالأعباء من إجراءات محمومة، تمامًا كما يفعل آحاد المغامرين الباحثين عن الثروة الذين ينوون استخدام التهديد لتحقيق غاياتهم الخاصة. أما مدعية النبوة ماريا بيزارو ومفسرها فرانسيسكو دي لا كروز فهما اليوم في طي النسيان. وتبدو حالتهما بالنسبة لنا هامشية. إلا أن هذا لم يكن ما رآه شعب ليما والإمبراطورية الإسبانية في القرن السادس عشر، حيث كان يمكن لادعاء النبوة أن يمثل بالنسبة لهم قيمة تغير وجه العالم. إنها رؤى لمنطق غريب علينا تبنتها آنذاك كل الأطراف الفاعلة مانحة لتلك القصة أهمية. أما انهيار غالتور الجليدي فهو جزء من تاريخ طويل من صد الانهيارات الجليدية والتعامل مع عواقبها. ويطور الأشخاص الذين يعيشون في مناطق الخطر ثقافات تهديد خاصة بهم. أما في حالة العواصف الترابية في الاتحاد السوفيتي والصين وأستراليا فإن أمثال ثقافات التهديد هذه، بل قل ربما ثقافات الكارثة هي نتيجة للتدخل البشري في المنظومات البيئية الطبيعية. في المقابل غيرت ليلة رأس سنة 2015[1] في كولونيا نظرتنا إلى الهجرة. استدعى الحديث عن تلك الأحداث بصمات قديمة للتهديد انتجت بصمات جديدة. لقد أثبتت التصنيفات الأخلاقية أنها تصلح على نحو خاص لرسم الحدود الفاصلة. وهناك في تاريخ الحرب العدوانية الروسية ضد أوكرانيا عديد من الأمثلة بالفعل على توظيف مخاوف التهديد والتحريض المستهدف لمشاعر أخرى من أجل تحقيق أهداف سياسية تعجز قدرات الأطراف الفاعلة عن تحقيقها في ظل ظروف الحياة اليومية.

على الرغم من فردية كل الأحداث والقصص فإنه يمكننا أن نرى أوجه التشابه؛ فهي تتعلق بالإرباك والإنذار وفضاء الاحتمالات المتولد عنها والجهود المحمومة للتخفيف من أثر الوضع الناشئ وفشل تلك الجهود والبحث اللاحق عن استراتيجيات أخرى ترتبط بإنذارات جديدة وحشد للناس والمواد والتأمل بالنظر إلى التهديد الذي يواجهنا في من نكون "نحن" فعلا. ولأن هناك أوجه تشابه فإن إجراء المقارنات أمر ممكن، ولكن ليس على نحو منهجي ورياضي، إذ لا يمكننا أن نحمّل القصص الادعاء بأننا سنقدم أقوالا عن العلاقة بين المتغيرات تطابق الحقيقة. لا يمكننا القول إنه إذا تم تصديق تهديد ما وافترضنا له علاوة على ذلك الاحتمالات أ ، ب ، ج فإن النتيجة ستكون بالضرورة "د". كما لا يمكننا استخدام قصصنا التمثيلية ونقاط التماس المشتركة فيها لطرح أي توقعات تخص التهديدات المستقبلية وكيفية التعامل معها. لكن يمكننا مع ذلك تطبيق الملاحظات والفرضيات

[1] المقصود هنا ما شهدته تلك الليلة من تحرش جماعي في محطة القطار الرئيسة بمدينة كولونيا قام به أشخاص يحملون ملامح شمال أفريقية أو عربية وتسبب في موجة غضب شديدة على الصعيد الاجتماعي والسياسي. (المترجم)

والأطروحات من حالة إلى أخرى للوقوف على مدى قابلية الملاحظات على التعميم. في أي مكان آخر يا ترى يمكن أن نجد ثقافات مُهددة كما هو الحال في غالتور؟ هل ستكون بصمات التهديد أيضًا بنفس الوضوح بصرف النظر عن ليلة رأس السنة في كولونيا؟ هل كل تهديد ، إذا تم تصديقه كما في حال وباء القسطنطينية ، يُخرج جنودا باحثين عن الثروة ومستفيدين من التهديد؟ هل غيرت التصنيفات الأخلاقية فضاء التعامل في كثير من الحالات؟

إننا نتعلم من خلال الدراسة المكثفة للحالات ومن خلال إجراء المقارنات فيما بينها. والمقارنة ممكنة لأن التهديدات تطرأ في كثير من الأماكن وتنتج ديناميكيات مماثلة. والمقارنة مثمرة لأنها تتيح فرصة لكي نربط بين ما لدى الأفراد من قدرات. هذا ما يميز البحث ذي التخصصات البينية، وهذا ما نريد أن نبيّنه أيضا في هذا المجلد. مؤلفوه متشابهون ومختلفون. نحن علماء مهتمون بالحياة اليومية وبأفعال الناس، بالأحداث وبالعواطف، بالتغيير السريع وما يقاوم التغيير مقاومة مستميتة. لكننا نأتي من تخصصات مختلفة ولدينا سير ذاتية مختلفة. في الفصل الأول يقوم بالقص عديد من المؤرخين وعالمة في الحضارة الصينية وعالم اجتماع وعالم حضارات تجريبي. في فصول لاحقة سيتم إضافة تخصصات علوم اللغة الألمانية وآدابها واللاهوت الكاثوليكي، وعلوم السياسة، والقانون، وعلوم اللغة الأمريكية وآدابها وعلم الأعراق والإعلام. تكشف مقارنة القصص عن أدوات تحليلية مختلفة وأنماط سردية وعادات تأويلية. ويمكننا تطوير الخيال بطرح السؤال التالي: كيف ستبدو هذه القصة لو لم يخبر عنها مؤرخ بل عالم أدبي؟

وقصص الحالات التي سنعرضها هي قصص زاخرة بالحياة؛ إذ تتيح لنا أن نشاهد عن كثب الأطراف الفاعلة وهم يفكرون ويشعرون ويتصرفون في ظل أشد الظروف قساوة. وكثير من التفاصيل التي ستصل إلى ناظرينا لا تتناسب على نحو جيد مع الروايات الكبرى المعتادة عن صيرورة الدولة الحديثة والمجتمع المعقد والاقتصاد الصناعي والاقتصاد ما بعد الصناعي حاليا. هذه التفاصيل المتمردة عن المألوف مهمة لأن بها قدرة دفينة على سرد التاريخ بشكل مختلف. هل البصمات الأخلاقية كما تقدمها لنا على ما يبدو القصص اللاحقة لليلة رأس سنة 2015 أصبحت أكثر أهمية في القرن الحادي والعشرين؟ فإذا كانت الإجابة بنعم، كيف يتناسب ذلك مع الفرضيات الشائعة عن تعاظم الواقعية في مرحلة الحداثة وعن انفصالها عن العصور السابقة لها التي كانت أكثر عاطفية؟ كيف يتلاءم المنطق الديني والسياسي الغريب لماريا بيزارو ومفسرها فرانسيسكو دي لا كروز من ليما أو المقاطع الوعظية لسرديات طاعون القسطنطينية مع تاريخ الأخلاق وأهميتها بالنسبة للدول والمجتمعات؟

الحاضر والتاريخ

يمكن أن تتحول كثير من الأمور إلى تهديد. عندما تقدمنا مع فريق من جامعة توبنغن في عام 2011 بطلب للحصول على تمويل من مؤسسة الأبحاث الألمانية أشرنا إلى الفيضانات في أستراليا والبرازيل لتوضيح حيوية موضوعنا. أرفقنا مع الطلب الميزانية الختامية لشركة التأمين "مونشينر روك" والتي اتضح منها ارتفاع هائل لعدد الكوارث الطبيعية وعدد الوفيات المرتبطة بالكوارث في عام 2010. في عام 2015 ونحن نجري بحوثنا دار جدل محموم في ألمانيا عما إذا كانت الهجرة تشكل تهديدًا. لقد تعلمنا أن المواقف التي لا يجد فيها إنذار ما تصديقا لدى سوى بعض الأشخاص تتسم بديناميكية خاصة. في عام 2016 قرر البريطانيون مغادرة الاتحاد الأوروبي. في الولايات المتحدة انتُخب دونالد ترامب رئيسًا. وأصبح التنبؤ بالسياسة الدولية أصعب وأصعب. بدءا من مارس 2020 وجدنا أنفسنا في تهديد بسبب فيروس كورونا اعتقدنا اعتقادا سريعا وشاملا في وجوده. لقد كان حدثا تاريخيا استثنائياً وكذا مدة الموقف التهديدي كانت استثنائية: فمع تصاعد الموجة وانحسارها تم تعليق الأعراف القانونية ومجريات الحياة اليومية الروتينية لسنوات. وبينما تطورت مجددا جراء ذلك أوجه جديدة ومعدلة من روتين الحياة بدأت روسيا حربًا عدوانية ضد أوكرانيا في نهاية فبراير/ شباط 2022. أصبحت أوجه اليقين في السياسة الدولية فجأة موضع تساؤل – ليتواكب مع ذلك عواقب كان لها تأثيرها على حياتنا اليومية، وصولا إلى الفقدان الوجودي الكامل للناس في أوكرانيا وروسيا.

يؤدي التأمل في التهديد – كما تعلمنا – على نحو فريد إلى إيجاد علاقة بين الحاضر وبعض الحالات التاريخية. ولأن التحذيرات والتهديدات المعاصرة تحرك عواطفنا وعقولنا فإننا ننظر إلى التهديدات التي شهدها التاريخ بأعين مختلفة. والعكس صحيح: إن المعرفة التي اكتسبناها من خلال الدراسة المقارنة لما شهده التاريخ من تهديدات تفتح آفاقًا خاصة للتحذيرات والتهديدات التي تحدث أمام أعيننا وفي حياتنا. والنقاش الراهن حول خطر نشوب حرب عالمية ثالثة يتطور على أساس الخبرات المكتسبة من الحربين العالميتين الأولى والثانية.

لنلقِ نظرة على هذه العلاقة المتبادلة باستخدام مثال فيروس كورونا الذي جعلنا خطره لاهثي الأنفاس منذ عام 2020. فعلى خلفية الحالات التاريخية التي لدينا فإن هذا الحدث يعد أمرًا ذا خصوصية لأن الفيروس أصاب أشخاصًا كانت تربطهم علاقات منظمة محليًا وإقليميًا ووطنًيا ودوليًا وكانوا متشابكين تشابكا من أوجه عديدة في جميع أرجاء العالم. تغير فيروس كورونا ليظهر في أماكن معينة وفي أوقات معينة بشكل مختلف. لكن النسخ الناجحة منه انتشرت بسرعة وأصبحت مشكلة في عديد من الأماكن. ومع ذلك شهدت المجموعات الاجتماعية والمجتمعات التي كان عليها التعامل مع هذا اختلافات عظيمة؛ فقد كانت ثقافة التعامل السياسي وإجراءات صنع القرار مختلفة في الصين عنها في الولايات المتحدة أو ألمانيا. شعر الناس بالتهديد بطرق مختلفة، وهذا لا ينطبق فقط على الدول أو الأمم ولكن أيضًا على الوحدات والفضاءات الأصغر: كان الشعور بالتهديد مختلفًا في جبال الخام

الألمانية عنه في ولاية هولشتاين. وكانت النتيجة ديناميكيات سياسية مختلفة، ولكن أيضًا أعداد مختلفة من الضحايا. اتخذ الحكام الجمهوريون في الولايات المتحدة قرارات مختلفة عن الحكام الديمقراطيين. كما قاموا بتقييم نتائج قراراتهم بشكل مختلف.

كانت الأطراف الفاعلة في جميع أنحاء العالم يتابع بعضها البعض الآخرين. كان يمكنها من فعل ذلك في الزمن الحقيقي لأول مرة في التاريخ بدعم من الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي. واستخلص جميع المشاركين من المقارنات الحجج التي تقدم مبررا لأفعالهم هم أنفسهم. في ألمانيا لعبت صور نقل الجثث من بيرغامو في مارس 2020 دورًا حاسمًا في التنفيذ التوافقي إلى حد كبير للقيود الهائلة على الحقوق الأساسية. لم تكن هناك بعد في ذلك الوقت في ألمانيا وحدات رعاية مركزة مثقلة أو خبرات واسعة النطاق بحالات المرض أو الوفاة على الأرض الألمانية. على امتداد العام جرت مناقشة الطريقة الصينية والسويدية من أجل تقييم السلوك السياسي الألماني بشكل أفضل. كانت الخلافات الأمريكية حول إدارة ترامب لكورونا موضوعًا متكررًا في ألمانيا كما كان الأمر بالنسبة للبرازيليين حول تعامل الرئيس بولسونارو مع الأزمة. من هذا تعلمنا أن نولي حتى ما يخص الحالة عندنا مزيدا من الاهتمام للاحتمالات والعواقب التي قد تنجم عما نقوم به من متابعة بعضنا للبعض الآخر.

على العكس من ذلك تتيح المعارف المستخلصة من الحالات التاريخية أن ندرك أن ربيع عام 2020 حتى مع وجود تهديد كان حدثا مستبعدا وأمرا استثنائيا؛ فليس لدينا سوى عدد محدود من الأمثلة التي كان من الممكن فيها التدخل على نطاق واسع في مجريات الحياة المعتادة وفي الحقوق انطلاقا من الإجماع الواسع على الاعتقاد في وجود تهديد لم يكن ملحوظًا بأية حال في المحيط الشخصي. تولى النقل البصري للحدث والصور القيام بنفس الدور الذي لعبته في معظم التهديدات السابقة التجربة والمعايشة الشخصية. ومع ذلك لم يكن لتلك الصياغات البصرية والصور دائما نفس الدلالة وليس في كل مكان؛ ففي الولايات المتحدة لم تكن الصور القادمة من نيويورك كافية لتوحيد غالبية السكان على تبني تشخيص بوجود التهديد؛ فحتى أقوى الصور تتوقف على كيفية تفسيرها؛ فتفسير الصور هو الآخر عملية مُتسلط عليها.

لقد غيّرت تجربتنا مع فيروس كورونا وعواقبه نظرتنا إلى التاريخ – وسيكون لهذه النظرة المتغيرة للتاريخ تأثيراتها الواضحة على تعاملنا مع الجوائح في المستقبل. وحتى عام 2019 ربما لم يكن – إلا فيما ندر – أي شخص قد تداعى إلى ذهنه تلك الكلمة المفتاحية "الأنفلونزا الإسبانية". أما اليوم فالأمر يختلف، إذ يظهر لنا تاريخ البشرية الآن أيضًا على أنه سلسلة طويلة من الأمراض والجوائح. وهو ما يمكن وصفه أيضا بأنه تاريخ من النجاح، أيضًا فيما يخص نظرتنا لعام 21/2020؛ فقد نمت معرفتنا بالفيروس الذي لم يكن معروفا في البداية، نموا سريعا. أمكن استنادا إلى التعاون الدولي تطوير اللقاحات وإعطائها بسرعة عظيمة. ومع ذلك كان الرأي العام مهتما على نحو أعظم بالشكوك المثارة بشأن التقدم والتطور المستمر للعلوم وما لدى البشر من قدرات على التطويع. يتكون التاريخ أيضا – كما رأينا بأم أعيننا – من توقعات مُضللة وخطط فاشلة وغياب سلطة التصرف أو فقدانها. بطبيعة الحال لم يتعامى المؤرخون إلى يومنا هذا عن هذه الجوانب من تأملاتهم، بل على العكس: في وقت مبكر من نهاية القرن الخامس قبل الميلاد كان أول مؤرخ معاصر للعصور القديمة وهو الأثيني ثيوسيديدس انطلاقا من تجربته الخاصة مع الكارثة (فقد كان شاهدًا معاصرًا وضحية للحرب العظمى بين أثينا وأسبرطة وأصيب في تلك الأثناء بمرض "الطاعون" الأثيني)، قد عالج موضوع القذف بالإنسان في يم التاريخ. ولو تحدثنا بلغة اليوم فسنتحدث عن عالم الإمكانات المفتوحة المتضاربة. غير أن كتابة التاريخ تتأثر بفترات الازدهار. وكل مؤرخ يستخلص من زمنه نقاط ارتكاز مختلفة لعرض التاريخ. لقد تسببت جائحة كورونا في إعادة لتوجيه المسار في وقت وجيز جدًا. وأصبحت الصورة التاريخية المألوفة عن التهديد لدينا أولى ضحايا هذه المنظومة المُهددة.

تتضح إعادة التوجيه هذه بالفعل في سوق الكتب وفي المجلات العلمية واللقاءات النقاشية؛ وبدأت تدريجيًا فرض بصمة مميزة على الدراسات التاريخية، وستترك آثارها لمدة طويلة. وأي مؤرخ هذا ممن عايش جائحة كورونا سيتمكن من الكتابة عن الأمراض والأوبئة التاريخية في العقود القادمة دون أن يضمّن تجاربه الخاصة فيما يكتب، سواء بوعي أو ربما بلا تنظير منه على تجربته الذاتية؟ متى كنا أكثر وعياً بأن الفترة التي نسميها "العصور الوسطى" قد أحاط بها وباءان مدمران - وماذا نستخلص من ذلك بالنسبة لرؤيتنا لهذه الألفية؟

وكيف سيؤثر التهديد الحالي على نظرتنا للتاريخ وإسقاطاتنا المستقبلية؟ لقد أزاحت الحرب العدوانية الروسية ضد أوكرانيا في غضون ساعات جائحة كورونا من دائرة اهتمامات وسائل الإعلام والمناقشات العامة إلى حد كبير. وهذا في حد ذاته أمر جدير بالانتباه (ويُظهر مرة أخرى أنه لا يمكن لموضوع التهديد أن يضع المجتمع في حالة المنظومة المُهددة إلا عندما يقوم المجتمع بتفعيل الإنذار الذاتي قبلها). وبدلاً من ذلك يدور الحديث الآن عن شحنات الأسلحة، وتدعيم تسليح الجيش الألماني، والقوة الدفاعية لحلف الناتو - باختصار: عن الحرب. هل ستعود الحرب التي لم تزحها المجتمعات الغربية من دائرة اهتمامات الحاضر فحسب، بل أيضا من التاريخ بشكل متزايد لتتصدر البحوث التاريخية؟ متى كنا أكثر وعيًا بأن التقسيم التقليدي للتاريخ يتبع في آخر الأمر أيضًا منظورًا أوروبيًا يخص التحول ما بين الحرب والسلام؟

يقودنا هذا الأمر إلى مقصد آخر من مقاصد هذا الكتاب وهو ما نهدف إليه من استخدام خبراتنا لفهم التاريخ بشكل مختلف؛ فتجاربنا الحالية تطلق عنان الفضول التاريخي وتوجهه. ولكن عندها يبدأ ارتباك إيجابي ناتج عن غرابة القصة ليؤدي بنا إلى

معارف جديدة. ولهذا فإن أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 وجدت مكانا لها في هذا المجلد مثلها في ذلك مثل الجدل الدائر حول الهجرة في عام 2015. ومع ذلك يتم وضع كلا الموضوعين في إطار مجموعة من القصص التاريخية والقريبة من الزمن المعاصر والتي مع ذلك تحدث في مناطق أخرى من العالم. وكلها تظهر بادئ ذي بدء أن كل مجموعة اجتماعية وكل مجتمع يمتلك قدرات وآليات خاصة به مختلفة لخلق منظومته والحفاظ عليها. وهو ما يعني أن كل مجتمع معرض للتهديد بطريقة معينة ولديه أيضا فهم مختلف لما يمكن أن يهدده وما لا يمكن. وتسونامي له صلة ذهنية مختلفة تمامًا بالنسبة لسكان دولة جزرية في المحيط الهادئ مقارنة بسكان شتوتغارت. لقد شكل تفشي وباء الطاعون تحديات مختلفة للمجتمعات قبل اختراع المضادات الحيوية عما هو الحال عليه اليوم. إن تصور وجود إله غاضب يعاقب الإنسان يصيغ في مجتمعات مختلفة استراتيجيات للمواجهة عظيمة الانحراف بعضها عن البعض الآخر. لهذا السبب يمكن النظر إلى طاعون جستنيان في القرن السادس الميلادي على أنه حالة تهديد مثلها مثل هرطقة الراهب الدومينيكاني فرانسيسكو دي لا كروز في ليما بعدها بألف عام أو جائحة كوفيد الراهنة. لهذا السبب تقودنا الحالات التمثيلية التالية أيضًا إلى عوالم حياتية تبدو للوهلة الأولى هائلة الاختلاف. ومع ذلك فإنها جميعًا يوحدها شيء واحد: بغض النظر عما تمثل فيه التهديد وما تمخض عن التهديد من عملية إنذار ذاتي فقد رأت الأطراف الفاعلة وما زالت ترى أنفسها – وكذا ترى السياقات الاجتماعية التي كانوا قد تحركوا فيها حتى ذلك الحين – على أنها عرضة لتهديد وجودي. ونتيجة لذلك فقد فعّلت هذه الأطراف ولا تزال تفعّل استراتيجيات مواجهة – على النحو الموصوف هنا – لها أوجه تشابه بنيوية ويمكن بالتالي أن نربطها تحليليًا ببعضها بالبعض الآخر. ومع ذلك فإن هذا لا يمنحنا أي تنبؤات موثوقة تجاه المستقبل، إلا أنه يمنحنا على أية حال فهمًا متعمقا لما يتخذه الإنسان من إجراءات في أكثر المواقف قساوة وبالتالي رؤى جديدة متبصرة للسلوك البشري بشكل عام.